العفاريت أكثر قوة عندما اختفت

د. عبدالغنى عبدالحميد رجب
طبيب نفسى
عضو الجمعية المصرية للطب النفسى

فى العصر الحاضر لا يؤمن كثير من الناس بوجود العفاريت والأشباح والأرواح الشريرة، بينما فى الزمن الماضى كانت العفاريت جزءا من نسيج المجتمع، وليس فى هذا ضرر فهناك وسائل الوقاية منهم وترويضهم أو حتى تسخيرهم مثل الطهارة والاستعاذة وقراءة آيات من الذكر الحكيم والأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها، ونتيجة لرفض الإنسان العصرى لوجود العفاريت من الناحية العقلية فقد تحولت فكرة العفاريت للاشعور وبدلا من أن يقاومها بالوسائل المتعارف عليها قديما أضحى يلجأ للمعالج الروحانى وهو فى الحقيقة من الدجالين المشعوذين، وفى التراث الشعبى وألف ليلة وليلة بالذات تقوم العفاريت ببطولة الدور الثانى في الليالى، وقد قامت ألف ليلة وليلة بإخراج العفاريت من العقل الباطن إلى العقل الواعى وأظهرتهم للضوء حتى لا يخاف منهم الإنسان ويصبحوا مصدرا للتوتر والقلق ، ونحن أطفال كانت أمهاتنا تقصصن علينا قصص العفاريت ليس بغرض التخويف والإرهاب ولكن للترويض ونزع رهبة العفاريت من نفوسنا، فهذا عفريت عجوز مريض يسير مستندا على جدار ويطلب من الإنسان أن يأخذ بيده لكى يقف حتى يتمكن من إخافته، وهذا عفريت صغير يحب اللهو واللعب مع الأطفال الصغار، وفى منثورات فارسية لجلال الدين الرومى الصوفى الكبير: شكا الطفل الصغير لأمه من عفريت أسود مخيف يظهر له مرة بعد مرة ويبث فى روعه الذعر والخوف فنصحته أمه أن يتحدث مع العفريت قائلة له «إنك إن تحدثت معه عرفت ماهيته وأمكنك أن تحدد التصرف المناسب للتعامل معه»، وتتكاتف الأمثال الشعبية مع الحكايات في التهوين من شأن العفاريت حتى لا يخاف منها الإنسان فنقول : اللى يخاف من العفريت يطلع له . ما عفريت إلا بنى آدم. كل خرابة وفيها عفريت، والمثل الأخير دعوة لتعمير الأرض ومنع انتشار الأماكن الخربة فهو الذى سوف يقضى على العفاريت ، فلنقص على أطفالنا قصص ألف ليلة وليلة (فى الطبعات المهذبة) بدلا من قصص الرجل العنكبوت والسوبر مان والرجل المطاط وغيرها من قصص الغرب المقززة، فالحكايات الشعبية الشرقية تحتوى على طاقة تربوية ضخمة وتقدم مساعدة نفسية هائلة للطفل أكثر مما تقدمه النصائح والمواعظ المباشرة، ويجب أن تعود الحكايات الشعبية كجزء من تربية الطفل المنزلية لما تتحلى به من مميزات فهى تجسد للطفل المشكلة وتصور له أبعاد الخير والشر ويظهر دائما فى نهايتها انتصار الخير وهزيمة الشر.

كما أن الحكايات الشعبية تظهر أزمات النمو والمشكلات النفسية التى يتعرض لها الكائن البشرى خلال صيرورته، كما أن الشكل والمضمون فى الحكاية الشعبية يمنحان الطفل صورا يستطيع أن يجسدها فى أحلام يقظته ويساعداه على توجيه حياته ووجوده بشكل أفضل.

إن رسالة الحكايات الشعبية المعروضة بطرق مختلفة ومتعددة هى أن تخبر الطفل أن الصعوبات الكبيرة في الحياة هى شىء لا مناص منه، وأنها تؤلف جزءا حميميا من الوجود البشرى فإذا جابهنا بقوة وعزم التجارب غير المتوقعة التى غالبا ما تكون ظالمة بدلا من الهرب منها فإننا نتغلب عليها، والأشرار في الحكايات الشعبية دائما ينهزمون شر هزيمة ويعجب الطفل بالبطل الطيب ويتوحد معه ويتخيل أنه يتقاسم معه كل الآلام خلال محنته.

أبطال الحكايات الشعبية إما أخيار وإما أشرار ولا يوجد الوسط مما يسمح للطفل أن يفهم بسهولة الاختلاف بينهما ويدعوه إلى أن يتخذ القرار فيما يجب أن يكون هو نفسه فى المستقبل ، وفى كثير من الحكايات الشعبية نجد أن الأكثر ضعفا ينتصر فى النهاية طالما تسلح بالصبر والمثابرة وفى هذا قيمة كبيرة للطفل تجعله يثق بنفسه مهما كان ضعيفا أو مريضا وللحكايات الشعبية دور مهم وإيجابى في مساعدة الطفل على إتمام نموه الداخلى حيث إنها عمل فنى يفهم نفسية الطفل ويفهمه الطفل أيضا أكثر من أى عمل فنى آخر، كما أنها تساعد الطفل على تنظيم وضبط المشاكل النفسية لنموه وتكامل شخصيته فهى تملك مدلولا نفسيا فاعلا فى الأطفال، واختيار الحكاية الشعبية يعتمد فى المقام الأول على الطفل وحده بحدة استجاباته الانفعالية أمام هذه الحكاية أو تلك فنستدل على التأثير في الشعور واللاشعور، وسيظهر للأم مع مرور الأيام أية قصة يهتم بها الطفل ويستجيب لها،وقد يطلب الطفل هذه القصة بالذات كل ليلة فيأخذ من قصته المفضلة كل الفائدة التى يمكن الحصول عليها، ويمكن فهم وتحليل شخصية الطفل من قصته المفضلة كما يمكننا أن نشرك الطفل فى إبداع القصة بأن نجعله يتم القصة بنفسه وبأسلوبه الخاص، أو نجعله يقترح أحداثا ونهايات أخرى للقصص ومن اللازم أن يشارك الأبوان الطفل انفعالاته تجاه قصته المفضلة، ومن

المؤكد أن الحكاية الشعبية خلافا لكل الأشكال الأدبية الأخرى تتيح للطفل اكتشاف هويته وهى مادة تسمح له بأن يكوّن مفاهيمه عن أصل العالم ونهايته وعن الأفكار الاجتماعية التى يستطيع أن يلتزم بها ولا بأس من تكرار الحكاية الشعبية نفسها مرات عديدة إذا طلبها الطفل أو تأثر بها على أن يكون التغيير فقط فى نبرات صوت الأم ولغة الجسد والتركيز على الأخلاقيات والقيمة النبيلة فى القصة.

الطفل كائن «ناطق رامز مبدع» والحكاية الشعبية بمفرداتها اللغوية التى يتعلمها الطفل تحقق له كينونته ككائن ناطق له محصوله اللغوى الكبير، والحكاية الشعبية تعبر عن أحداث خارجية بشكل رمزى فهى تلبى حاجة الرمز عند الطفل (قصة ذات الرداء الأحمر كمثال) والإنسان عموما كائن رامز يستجيب للرمز أكثر مما يستجيب للواقع وصحته النفسية تتمثل فى صنع الرموز وحلها، والحكاية الشعبية تفتح للطفل آفاقا جديدة من الإبداع الشخصى فمن الممكن أن ينسج الطفل حكايات جديدة على منوال الحكايات الشعبية التى استمع إليها ومن الممكن أن يقترح بإبداعه الذاتى أحداثا جديدة للحكاية أو نهاية أخرى، ولذلك فالحكايات الشعبية تساعد على تكوين الطفل المبدع والفنان، وأخيرا فإن الحكاية الشعبية تعلم الطفل ألا يتراجع إذا فشل فى المحاولات الأولى وأحداث الحكايات الشعبية ومدلولاتها النفسية تستقر فى وعى الطفل الباطن وتؤثر فى حياته كلها بعد أن تتحول إلى سلوك والتعليم في الصغر كالنقش على الحجر.

ويبقى سؤال: هل يمكن تقديم الحكايات الشعبية من خلال الوسائط المتعددة كالتلفاز والشبكة العنكوبتية؟ الإجابة.. لا حيث إن الحكاية من الأم تختلف عن الحكاية من التلفاز، فالحكاية من الأم مشبعة بحنان الأم، كما أن تصوير الحكاية في التلفاز يلغى خيال الطفل ويجهض عملية الإبداع المشارك للطفل فى الحكاية ، حيث من اللازم أن نجعل الطفل يتخيل الأحداث ويتصورها حسب نبرات صوت الأم وطريقة إلقائها، وكذلك يلغى التلفاز مشاركة الطفل فى عملية القص واختيار الأحداث والنهايات والاعتراض على بعض الأحداث والحوار مع الأم لاستيضاح ما غمض عليه، كما أن الأم تستطيع أن تغير وتبدل فى أدائها وفى أحداث الحكاية من حين لآخر تبعا لمقتضيات الحال وكسرا للملل من التكرار.

الرمز والصحة النفسية للطفل:

رغم أن التفكير عند الطفل تجسيدى وليس تجريديا إلا أن للرمز دوره الهام فى الصحة النفسية للطفل ، والرمز يختلف بلا شك عن الرمز الذى يقدم للكبير، والدليل على أن الطفل يهتم بالرمز استخدامه لغة الجسد للتعبير عن أشياء يطلبها أو يرفضها، الرمز المقدم للطفل يجب أن يكون من السهولة بحيث يمكن التقاطه بسرعة ولا يسبب له الحيرة ومن ثم التوتر القلق، والرمز فى الحكاية المقدمة للطفل يجب أن يحفز خياله وينمى هذا الخيال، وأجمل ما يقدم للطفل من رموز هو الأحاجى والألغاز فإذا الألغاز رموزا تتطلب حلا فهى أيضا مشاكل تنتظر المواجهة فاللغز يعلم الطفل كيف يواجه المشكلة بالإضافة إلى أن اللغز هو طرفة أو أفكوهة فى حد ذاته فينمى فى الطفل روح المرح ويصنع منه مبدعا صغيرا، وقد سألت مجموعة من الأطفال فى اختبار لقدرتهم على الإبداع ماذا تفعل الأم لو ابتلع ابنها قطعة نقود معدنية؟ فأجابتنى طفلة في العاشرة من عمرها قائلة: تضع ابنها على الرف كحصالة وتدخر فيه النقود المعدنية، والألغاز ليست مجرد أحاجى لفظية تطرح للتسلية والتسرية فقط وإنما يحمل اللغز وظيفة أخلاقية تعليمية شأنه شأن الحكايات والأساطير والأمثال فاللغز يمكن أن يحل مشكلة أو ينمى معلومة أو يؤكد قيمة أخلاقية أو اجتماعية ويقوم بتحريك العقل وتنمية الخيال وزراعة روح المرح والسخرية والإبداع فى الطفل لكن يجب أن يكون اللغز خاليا من الغموض والتعقيد والابهام حتى لا يسبب الحيرة والقلق والتوتر للطفل ويجعله يرفض هذا النوع من الأدب الذى من شأنه أن يرفع من القدرات العقلية والنفسية للطفل لو قدم بطريقة بسيطة.

المراجع: التحليل النفسى للحكايات الشعبية، برونو بتلهايم، ترجمة طلال حرب.

الطب النفسى والأدب

العلاقة بين الطب النفسى والأدب أشبه بالزواج العرفى وهناك من أساطين الطب النفسى من لم يحصلوا على جوائز فى الطب النفسى لكنهم حصلوا على جوائز أدبية مرموقة. عندما عملت فى مصحة العباسية للطب النفسى كان نصف الأطباء يتوهمون أنهم أدباء أما النصف الآخر فكان يتخيل أنه أديب وعندما انتقل للعمل فى مصحة الخانكة للطب النفسى كان الأمر على العكس تماما فكان نصف الأطباء يتخيلون أنهم أدباء والنصف الآخر يتوهم أنه أديب.

الفيل صديقى

قال لى صديقى الطبيب النفسى السمين جدا إن العالم ينقسم إلى ذئاب وحملان وهو يرفض أن يكون ذئبا شرسا قاسى القلب يلتهم الحملان ويأبى أن يكون حملا تلتهمه الذئاب ولذلك قرر أن يصبح فيلا فالفيل لا تأكله الذئاب وهو يتغذى على الأعشاب.

علاج الغضب

اعط الغضبان مرآة ينظر خلالها ويرى وجهه وقد انقلبت أساريره وصار قبيحا انتفخت أوداجه وفار دمه وانقذف الزبد من فمه وخرج الشرر من عينيه وثق أنه حين ينظر للوجه القبيح فلن يغضب بعدها أبدا.

وما الرجل إلا طفل كبير

بداخل كل إنسان يوجد طفل صغير مهما بلغ الإنسان من السن والمكانة ويجب ارضاء هذا الطفل من حين لآخر حتى لا يتمرد على سيده ويحدث مالا يحمد عقباه. عندما كنت أعمل فى عيادة الأمراض النفسية فى المستشفى العام كان الكثير من الأطباء العاملين فى المستشفى يسِّرون إلىّ أنهم يجدون متعة كبيرة فى قراءة قصص الأطفال وفى ممارسة الألعاب الخاصة بهم وأنهم يضطرون للاستخفاء حتى لا يشاهدهم أحد وهم متلبسون بهذا الفعل الفاضح فيتهمهم بالجنون.

الطب مهنة إنسانية

الطب النفسى مهنة سهلة جدا فالزبون فيها دائما على خطأ

الإنسان ذلك المجهول

من طبائع البشر أنهم يقفزون للنتائج قبل أن تتوافر لديهم المعطيات مع العلم أن من يفعلون ذلك لا يتمتعون ببصيرة نافذة أو أى قدر من الفراسة.

الزواج. نظرة نفسية

الزواج. بلا شك. يغير الكثير من طباع الإنسان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. لقد ظللت أبحث عن ذاتى طوال فترة المراهقة والشباب حتى تزوجت فبدأ أبحث عن «الزيت» وتركت البحث عن ذاتى استجابة لطلب زوجتى التى لا تريد ذاتا مستقلة لها إرادة وإنما تريد زيتا تطهو به فوراء كل عظيم امرأة تدفعه لكى يترك ذاته ويبحث عن زيته وزيتونه.